مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 04 عدد: 08 السنة 2018 DOI :

مؤسّسة الزّاوية بالبلاد التونسيّة وتحوّلات الوظائف: زاوية سيدي علي بن عون نموذجا

« Zawya" institution in Tunisia and the shifts in Functions: Zawiyyat Sidi Ali Ben Aoun as a case study

عبد الكريم براهمي ، كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، جامعة تونس، تونس
abdelkarimbrahmi994@yahoo.com

ملخّص:

يهتمّ هذا المبحث بالتّحوّلات التي عرفتها وظائف مؤسّسة الزّاوية في البلاد التّونسيّة أثناء الاحتفال الدّينيّ السّنويّ. وتحديدا التّحوّل من "الزّردة" إلى المهرجان، في الفترة الممتدّة من بداية الاستعمار الفرنسيّ إلى أيّامنا الرّاهنة، واخترنا زاوية سيدي علي بن عون التي توجد بولاية سيدي بوزيد موضوعا لبحثنا. وتتلخّص التّحوّلات في مستوى الوظائف في طورين: طور "الزّردة" الذي تغلب عليه العفويّة والتّلقائيّة وطور المهرجان المتّسم بالتّنظيم والإعداد المسبق، لتتباين بذلك الوظائف: فـ"الزّردة" تطغى عليها الوظيفة الدينيّة القدسيّة، بتعدّد أبعادها الاجتماعيّة والاقتصاديّة. والمهرجان تهيمن عليه الوظيفة الدنيويّة وتحديدا الاقتصادية والثقافيّة. لكنّ ذلك لم يمنع بعض الطّقوس من الاستمرار ولو بصفة فرديّة تلقائيّة، فيتعايش بذلك الروحيّ الدينيّ والماديّ الدنيويّ.

الكلمات المفاتيح: "زَرْدَة" - مهرجان- سيدي علي بن عون - طقوس - وظيفة.

Abstract:

This article is mainly concerned with the transformations that «Al-Zawiyyah's» functions in Tunisia have experienced during the annual religious celebration, specifically, the shift from "Zerda" to festival from the beginning of the French colonization till now. Of particular interest is Al-«Zawiyyah» of Sidi Ali Ben Aoun, Sidi Bouzid. These shifts can be summarized in two phases: the "zerda" phase, which is overwhelmed by spontaneity, and the festival phase which is very often pre-arranged and organized in advance. As a result, the functions are different: the "zerda" is dominated by the sacred religious function, with its social and economic

dimensions. The festival, however, is dominated by mundane, economic and cultural functions. But this did not prevent some rituals from continuing, even in an individual and spontaneous way, coexisting, thus, with the spiritual, the religious and the worldly material.

- Keywords: « Zerda » ; Festival; Sidi Ali Ben Aoun ; Rituals; functions

المقدّمة:

أدى انتشار الإسلام وضمّه مناطق جغرافيّة متباعدة ذات خصائص اجتماعيّة وثقافيّة متنوّعة إلى اختلاف في مستوى التصورات والعقائد الدينيّة، وفي هذا السّياق ظهرت تعاليم الدّين الشّعبيّ. ومن ملامح هذا الاختلاف اقتران البيئة الاجتماعية الحضرية بالإسلام الرّسميّ أو العالم، واقتران البيئة الاجتماعيّة القرويّة الريفيّة بانتشار الإسلام الشّعبيّ [1]. وتُعرف البلاد التّونسيّة وبلاد المغرب عامّة بانتشار واسع للتّصوّف الطّرقي الشّعبيّ المتمثّل في الزّوايا منذ القرن الخامس عشر ميلاديّا [2]. فمثّلت الزّاوية ظاهرة كليّة تضافرت وظائفها وخاصّة الدّينيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والتعليميّة والنفسيّة. وبفضل هذه الشّموليّة كان انتشارها الجغرافيّ واسعا إذ تستقطب أعدادا غفيرة من السّكّان. وتزدهر إيديولوجيا الزّوايا في فترات الضّعف السّياسيّ المركزيّ والتردّي الاجتماعيّ، حيث تصبح مؤسّسات دينيّة شعبيّة معارضة للسّلطة المركزيّة وبديلا سياسيّا واجتماعيّا عنها [3]. وفي فترات المركزة السّياسيّة تخضع الزّوايا إلى السّلطة الحاكمة. ولئن تميّزت وظائف الزّوايا بثباتها لعدّة قرون، فإنّ بداية تحوّلاتها كانت في الفترة الاستعماريّة وأصبحت أكثر وضوحا في فترة الدّولة الوطنيّة. وهي تحوّلات تنطبق على مختلف بلدان المغرب. إنّ القدرة الفائقة للزّوايا على استقطاب النّاس وتأطيرهم جعل الدّول القائمة في بلدان المغرب تعترف بها وتسعى إلى تشريكها في سياساتها وتمكّنها من امتيازات عديدة على غرار الأحباس والإعفاءات الجبائيّة حتى تكسب ولاءه ودفعه الضّرائب. وحتّى تتمكّن من توظيفها للسّيطرة على المجتمع القبلي لتضمن بذلك ولاءه ودفعه الضّرائب. وسنهتّم في هذا المبحث بزاوية سيدي علي بن عون التي توجد على سفح جبل السّاهلة في منطقة تعرف بفراش بن راضية، على بعد خمسة كيلومترات غرب مدينة سيدي علي بن عون وهي إحدى معتمديّات ولاية / محافظة سيدي بوزيد. وتنتمي هذه الزّاوية موضوع البحث إلى الزّوايا الريفيّة بوسط غرب البلاد التونسيّة، وتوجد في مجال عرف بصعوبة إخضاعه للسّلطة المركزيّة قبل الاحتلال الفرنسيّ، وبانتمائه إلى المناطق المهمّشة في عهد الدولة الوطنيّة. وسنكتفي بدراسة تحوّلات وظائف زاوية سيدي علي بن عون أثناء الاحتفال الدينيّ السّنويّ

منذ الفترة الاستعماريّة إلى أيّامنا الرّاهنة، التي يمكن تلخيصها في التّحوّل من "الزّردة" إلى المهرجان. أي سنبحث في التحوّل الطّارئ على وظائف الزّاوية بتحوّل الطّابع الاحتفاليّ الدّينيّ.

وقد وقع اختيارنا على زاوية سيدي علي بن عون نظرا إلى أهميّة عدد زوّار المهرجان الذي يتراوح بين 400 ألف و500 ألف زائر أثناء الأيّام الثلاثة التي يُقام فيها، وهو بذلك يتفوّق على مختلف المهرجانات والتظاهرات الثّقافيّة الأخرى ليس فقط في البلاد التّونسيّة وإنّما في كامل بلاد المغرب.

واعتمدنا في انجاز هذا المبحث العمل الميدانيّ القائم على الملاحظة المباشرة والملاحظة بالمشاركة، وعلى تقنية المقابلات مع العديد من المخبرين من زوّار المهرجان، ومن سكّان سيدي علي بن عون وخاصّة منهم المشرفين على الزّاوية والمهتمّين بتراثها والمكلّفين بتنظيم المهرجان. ما مكّننا من تجميع العديد من المعطيات المتعلّقة بتراث الزّاوية وواقعها الرّاهن، والاطّلاع المباشر على العديد من الطّقوس والممارسات المرتبطة بـ "الزّردة" والعديد من الأنشطة والبرامج الثقافيّة المرتبطة بالمهرجان.

1 - وظائف زاوية سيدي علي بن عون أثناء الاحتفال الدّينيّ الشّعبيّ السّنويّ "الزّردة":

يبدو أنّ تنظيم الاحتفال الشّعبيّ "الزّردة" بزاوية سيدي علي بن عون يعود إلى نهاية القرن الثّامن عشر أو بداية القرن التّاسع عشر ميلاديّا [5]، وقد تواصل حتّى بداية العقد الأخير من القرن العشرين وتحديدا سنة 1992 حيث تحوّلت إلى مهرجان. ورغم سياسة التّضييق والاحتواء التي تعرّضت لها بعض الزّوايا من قبل السّلطات الفرنسيّة في الفترة الاستعماريّة [6]، وسياسة الحصار والاجتثاث التي اتّبعتها الدّولة الوطنيّة [7]، واصلت زاوية سيدي علي بن عون [8] أداء أغلب وظائفها المعتادة بما في ذلك ممارسة "الزّردة" - مدار اهتمامنا في هذا المبحث - التي ظلّت أركانها ثابتة حتى بداية العقد الأخير من القرن العشرين. ويرجع تواصل ظاهرة "الزّردة" بالزاوية المذكورة خلال فترة الدّولة الوطنيّة وتحديدا إلى بداية العقد الأخير من العشرين، إلى كونها ممارسة دوريّة، كما أنّ انعقادها لا يتطلّب تمويلا من الزّاوية، بل يمكّنها من جمع مداخيل هامّة تتمثّل في الصّدقات وأموال الزّيارة أثناء أيّام "الزّردة". ويدلّ مصطلح "الزّردة" على الاحتفال والفرح [9]، وعلى التّديّن الجماعيّ، وهي طقس يميّز الزّوايا القرويّة والرّيفيّة أكثر من الزّوايا الحضريّة [10]. وتُعدّ من أهمّ طقوس التّدين الشّعبي [11]. نظرا إلى كونها الطّقس الأكثر شعبيّة بين مختلف طقوس الزّاوية، لأنّه الطّقس الوحيد الذي يجمع مختلف الفئات

الاجتماعيّة والعمريّة من نساء وأطفال وكهول وشيوخ. ولئن كانت التّسمية الأكثر انتشارا في الأوساط القرويّة والرّيفيّة هي "الزّردة"، فإنّها تسمّى كذلك في الأوساط الحضريّة بـ"الزّيارة" أو "الخرجة" [12]. وهي وفقا للتّحليل الأنتروبولوجي زمنا مقدّسا وإحياء لزمن الخلق الأوّل واسترجاع له، وفي ذلك عودة إلى الأصل، وهي بذلك زمن يختلف عن الزمن الاجتماعي [13].

وتغلب على وظائف الزّاوية أثناء الاحتفال الشّعبيّ الدّينيّ "الزّردة" الوظيفة الدّينيّة، وتقترن بها عدّة وظائف أخرى اجتماعيّة وترفيهية واقتصاديّة يمكن اعتبارها أبعادا للوظيفة الدّينيّة الرّئيسّة. فمختلف هذه الوظائف تستمدّ معناها من سياقها الدّينيّ[14]، وهي وظائف متداخلة سنحاول الفصل بينها لغايات إجرائية منهجيّة.

1 - 1 - الوظيفة الدّينيّة:

تكشف مختلف الطقوس التي تتكوّن منها "الزّردة" اعتراف المريدين أو حرفاء الزّاوية - كما يسّميهم درمنقهام Dermenghem - ببركة الولي وكراماته [15]. وتشمل الوظيفة الدّينيّة "للزّردة" عدّة أركان تتمثل أهمّها في الزّيارة والحضرة والوعدة (االنّذر).

- الزّيارة:

هي طقس يمكن ممارسته في مختلف الأيّام، إلاّ أنّه أثناء أيّام "الزّردة" يكتسب دلالة روحيّة ودينيّة أكثر [16]. وهي الرّكن الأساس في منظومة طقوس أيّ زاوية [17]. وتشمل العديد من الممارسات منها قراءة الفاتحة والطّواف حول الأضرحة الموجودة في حُجرة الزّيارة والدّعاء وتقبيل الجدران والأضرحة والمسح على السّناجق التي تغطّيها. وبما أنّ الزّاوية تحتوي على ضريح الوليّ سيدي على بن عون والبعض من أبنائه وابنته البتول للاّ شبلة. فإنّ زوّار الزّاوية يبدأون بالوقوف في حضرة الوليّ أوّلا ويقرؤون الفاتحة ثمّ يطوفون ببقيّة الأضرحة ويقفون كذلك في حضرة الابن الذي ينحدر منه الفرع الذي ينتمي إليه الزّائر إن كان ينتمي إلى أولاد سيدي علي بن عون، ثمّ ينتهون بقراءة الفاتحة والوقوف على ضريح للاّ شبلة [18]. ولئن تميّز الرّجال بخشوعهم وصمتهم عند الدّخول إلى الحُجرة التي تأوي الأضرحة، فإنّ النّسوة عند الزّيارة لا يخشعن وأغلبهنّ لا يقرأن الفاتحة وإنّما – يكتفين بالزّغاريد التي تعدّ صيحات طقوسيّة [19]، وبترديد بعض المقاطع من مدائح وأذكار تُعلي مرتبة الولي مخلّدة خصاله وبركاته وكراماته. وتشكّل البركات والكرامات الرّأس مال الرّمزي للوليّ والزّاوية.

وتحرص النّسوة على زيارة الزّاوية أثناء "الزّردة" يوميّا بصفة جماعيّة، ويردّدن أغاني فيها ذكر لكرامات الشّيخ وطهارة ابنته للاّ شبلة ووصف لجمالها الجذّاب [20]. وجرت العادة أن

تحتفل النّسوة عند ذهابهنّ إلى الزّيارة ويرتدين أفضل ما لديهنّ من ثياب ويتزيّن ويلبسن الحليّ. ويحملن معهنّ الشموع والحنّاء والبخور وخاصّة "الجاوي" (صمغ جاوة نسبة إلى جاوة بأندونيسيا)، وتقدّم هدايا للزّاوية، وهي ممارسة تهدف إلى التّقرب من الوليّ ونيل بركته. وللبخور وظيفة تطهيريّة بما أنّه يسمح بالقطع مع الدّنيوي وتحضير الأجواء الروحيّة المناسبة لممارسة الطّقوس [21]. بتخليص الرّوح بما هي جوهر طاهر من العرضي بما هو جسد مدنّس سعيا إلى الاتّصال بروح الوليّ. أمّا الحنّاء فتستعمل لتزيين أعمدة الزّاوية وجدرانها، وهو استعمال مقدّس، وممارسة طقوسيّة يلتجئ إليها بعض الزّوار لعدم قدرتهم على توفير الأضحية التي تعوّدوا تقديمها قربانا للوليّ سيدي علي بن عون، وهي من الطّقوس المنتشرة في العديد من الزّوايا ببلاد المغرب [22]. وتذكّرنا هذه الممارسات بإبراهيم الخليل حين رسم الهلال على جبين ابنه إسماعيل بدم الكبش[23]. فالحنّاء، إذن، تستمدّ رمزيّتها من لونها الذي يشبه لون الدّم.

ومثلما تقدّم النّسوة البخور والشّموع هديّة للوليّ يحرصن على الحصول على البعض من البخور والشّموع الموجودة في الزّاوية لاستعماله في بيوتهنّ نقلا لبركة الوليّ إلى فضائهنّ الخاص أي إلى بيوتهنّ [24]، معتقدات أنّ ذلك يُبرئ المريض ويُبعد المصائب ويجلب الحظ السّعيد.

وتفضل الإشارة في هذا السّياق إلى أنّ النّسوة أكثر تردّد من الرّجال على زيارة الزّاوية، وهي خاصّية لا تميّز زاوية سيدي علي بن عون فقط وإنّما تسم مختلف الزّوايا في بلاد المغرب. وعلّة ذلك أمران: الأوّل ثأر لا شعوريّ تسعى إليه المرأة من التّقييدات التي تستند إليها بعض الفتاوى الممثّلة للإسلام الشّرعيّ التي تضع شروطا وضوابط تحدّ من حضورها في المسجد، لذلك كانت الزاوية الفضاء الذي تمارس فيه المرأة طقوسها الدّينيّة [25]. والثّاني عائد إلى كون المرأة أكثر اعتقادا في الخوارق واللّامعقول خاصّة وأنّ شواغلها معقّدة ومتنوّعة في مجتمع تُحدّد فيه مكانتها بالشّرف والزّواج والإنجاب [26].

- الوعدة:

الوعدة ركن آخر من أركان "الزّردة"، وهي أحد أشكال تواصل الإنسان مع المقدّس [27]، فيستخدم هذا المصطلح مرادفا للنّذر، والوعدة ضربان: ضرب قائم على ثنائيّة الطّلب والاستجابة يقوم على الإيفاء بالعهد الذي يقطعه المرء على نفسه بتوفير نذر للولي إذا توسّط له مع الإله وتحقّقت طلباته. وعليه فالوعدة نذر يقدّم للوليّ اعترافا له بفضله في تحقيق طلب ما على غرار الشّفاء من مرض أو إنجاب بعد عقم أو تحقيق أرباح في تجارة معيّنة. وضرب آخر

دوريّ موصول بنهاية الموسم الفلاحيّ الذي يتزامن وموعد "الزّردة" يُقدّم كلّ حول يشترط فيه الالتزام وذلك جليّ في توريث الاضطلاع بهذه الممارسة، وعادة ما تسند إلى أكبر الأبناء سنّا. وتشمل الوعدة إلى جانب الأضاحي (الأغنام والماعز والثيران والجمال) العديد من الأشياء الأخرى مثل البخور والحنّاء والشموع والألبسة والأغطية والأعلام. وسنقصر اهتمامنا في هذا السّياق على الأضاحي باعتبارها الصّنف المميّز للوعدة المقدّمة للوليّ. وجرت العادة أن تذبح كلّ عائلة أضحيتها في حرم الزّاوية بالقرب من الخيام التي نصبوها لإيوائهم أيّام "الزّردة"، ويعدّون الكسكسي باللّحم ويقدّمونه إلى مختلف زوّار الزّاوية سواء أكانوا من أولاد سيدي علي بن عون أم من غيرهم. ويُعد الكسكسي في عالم الزّوايا غذاء طقوسيّا. ويكتسب هذا الطّعام قدسيّته وبُعده الدّينيّ من الأكل الجماعيّ.

- الحضرة:

تنعقد الحضرة بصفة دوريّة كلّ أسبوع في اللّيلة الفاصلة بين يومي الخميس والجمعة. وقد جرت العادة أن تقام العديد من "الحضْرات" (جمع حضرة) ليالي "الزّردة" بين الخيام المنتشرة في حرم الزّاوية بصفة تلقائيّة، وهي بذلك تعدّ من الممارسات الثّابتة في "الزّردة" بها تكتسب "الزّردة" طابعا احتفاليّا. فهي حفل ديني شعبي يتضمّن أناشيد صوفيّة وذكرا مداره كرامات الشّيخ سيدي علي بن عون، والغناء الشّعبي والموسيقى والزّغاريد وإيقاع "البِندير" [28] ، و"الشّطْحات" الصّوفيّة [29]. وهو ما يخلق نوعا من الصّخب الذي يمثّل أهمّ علامات الحفل الدّينيّ خاصّة وأنّ جوّ الصّخب يمكّن الجماعة من ولوج عالم المقدّس [30]. وإلى جانب وظيفتها الاحتفاليّة والتّرفيهيّة للحضرة وظيفة علاجيّة، لأنّها تُبرئ من العديد من الأمراض التي يتخصّص الولي في مداواتها مثل أمراض الصّرع ومن تلبّس بهم الجن (المجاذيب) والعجز الجنسيّ وعلاقته بالسّحر. وفي الغالب فإنّ المرضى يتأثرون بأجواء الحضرة الصّاخبة وعند إصابتهم بحالة من الانفعال، تنطلق مرحلة علاجهم بإتباع سلسلة من الطّقوس والممارسات التي تمكّنهم من التّخلص من الجنّ والشفاء مقابل الالتزام بتوفير وعدة سنويّة للوليّ [31]، وهي بمثابة "الخطيّة" [32].

1 - 2 - الوظيفة الاجتماعيّة:

للوظيفة الاجتماعيّة "للزّردة" وجهان: الأوّل الالتقاء والتّواصل، والثّاني الأكل الجماعيّ. فأمّا الالتقاء أو ما يُعبّر عنه محليّا بـ"اللّمّة"، فجليّ في دور "الزّردة" في تجميع العائلات التي تشتتت بفعل التّحوّلات الاجتماعيّة والاقتصاديّة التي عرفتها البلاد، وأدّت إلى انحلال النّظام الاجتماعيّ التقليديّ للجماعات المحليّة بسبب تفكّك البنى القبليّة والعائليّة. وهي بذلك

مناسبة سنويّة لتوحيد الجماعة، وهو ما يطلق عليه السّكان المحلّيون "اللّمّة" فكلّ العائلات تجتمع في "الزّردة" سواء بدافع النّيّة أو العادة [33].

ويحرص الجميع على الحضور وعدم التّغيّب إلاّ لأسباب قاهرة، والمشاركة في مختلف الطّقوس الدّينيّة كعناصر فاعلة، وليس كعناصر متلقيّة أو متفرّجة. فـ"للزّردة"، إذن، وظيفة اجتماعيّة هامّة تتمثّل في تجميع ما تفكّك من أواصر وإعادة ما افتقد من لحمة [34]. وتظهر "اللّمة" كذلك في طريقة نصب الخيام في حرم الزّاوية فغالبا ما تكون قريبة من بعضها إلى حدّ الالتصاق، وهو ما يكشف عن إعادة إنتاج رمزيّ لعلاقات القرابة التي تفكّكت [35].

وأما الأكل الجماعيّ المقترن بالوعدة فهو جزء رئيس من الحفل، إذ لا يمكن إتمام الحفل دون الوليمة والأكل الجماعي، وتكمن قيمة الأكل الجماعي في وظيفته الاجتماعيّة الرمزيّة [36] التي تتمثّل في توحيد الجماعة مرة في السّنة بعد تشتّتها. وهو بذلك يجدّد الرّوابط الاجتماعيّة ويمتّنها، خاصّة وأنّ الأكل الجماعي ينهض بدور هام في العلاقات الاجتماعيّة، بناء على قانون عرفي عمدته الخبز والماء والملح تُخلق روابط اجتماعيّة جديدة ومتينة. وتنشأ رابطة مقدّسة بين الأفراد تضاهي رابطة الرّضاعة، وقد ترقى إلى مستوى رابطة الدّم بفضل قوّة سلطتها الرّمزيّة [37]. وتشترك الحضارة العربيّة الإسلامية، مع العديد من الحضارات والشّعوب الأخرى سواء أكانت مسيحيّة أم يهوديّة أو غيرها [38]، في اعتبار رابطة الماء والملح رابطة مع الإله، وتنهض بدور هامّ في تمتين العلاقات الاجتماعيّة. وهو ما يجعل من هذه السّلوكات ثقافة إنسانيّة متحرّرة من الزّمان والمكان.

1 - 3 - الوظيفة الترفيهيّة النفسيّة:

يتميّز الدين الشّعبيّ عن الدّين الشرعيّ بمرونته وبتخصيصه حيّزا زمنيّا هاما للتّسلية والتّرفيه، بحيث لا يمكن الفصل بين الدّينيّ من جهة والترفيهيّ من جهة ثانية، أي أنّ أغلب طقوس "الزردة" تجمع بين المقدّس والدّنيويّ [39]، وتظهر الجوانب الترفيهيّة في "الزّردة" في ألعاب الفروسيّة والحضرة.

كانت ألعاب الفروسيّة تمثّل أرقى أشكال اللّهو والترفيه في "الزّردة" لأنّها تمثّل قيم الفتوّة والفحولة والبطولة والشّجاعة، وهي بذلك تذكّر بخصال الوليّ، وتكشف عن بطولاته. وهي من الممارسات التي تجد اهتماما كبيرا من قبل الجماعة المحليّة، لأنّها تكرّس قيما يسعى الجميع لاكتسابها. خاصّة إذا أخذنا بعين الاعتبار انتماء الجماعة المحليّة إلى قبيلة الهمامة المعروفة بقدراتها الحربيّة ومواصلتها ممارسة الغزو ونهب القبائل الأخرى والمجموعات المستقرّة

المجاورة لها [40]. ويشارك في ألعاب الفروسيّة فرسان القبيلة وفرسان من القبائل الأخرى مثل الفراشيش وأولاد عيّار وغيرهم. وكانت مشاركتهم تلقائيّة وفي شكل نذر سنويّ للوليّ مقابل التّمتّع ببركته. وكانوا يقيمون لدى أصدقائهم من أبناء سيدي علي بن عون، الذين يتكفّلون باستضافتهم وتوفير الأعلاف لخيولهم. وهو ما يسهم في التّقريب بين قبائل اتّسمت علاقتها بالتنافر والنّزاع المتواصل.

أمّا الحضرة فهي تؤكّد الطّابع الاحتفالي لـ"الزّردة" بفضل ما تتضمّنه من أناشيد دينيّة وذكر وأغاني شعبيّة وإيقاع "بندير" و"شطْحات" صوفيّة وزغاريد. توفّر مجتمعة أجواء صاخبة تقطع كليّا مع نسق الحياة اليوميّة ورتابتها. إلى ذلك تضطلع "الزردة" بوظيفة نفسيّة إذ تحرّر الغرائز من ضغوطات الحياة اليوميّة [41]، لما تتّسم به من مظاهر احتفاليّة دينيّة متنوّعة، وتساهم في تحرّر الانفعالات المكبوتة خاصّة في ظلّ تقليص الرّقابة الاجتماعيّة أثناء أداء مختلف الطقوس، حيث توفّر هامشا من التحرّر خاصّة بالنّسبة إلى المرأة وهو ما يمكّنها من التّعبير عن رغباتها، وهي من المناسبات النّادرة التي يُسمح فيها للمرأة بالخروج والاحتفال والاختلاط مع الذّكور والتّحرّر من ضوابط المجتمع الذي يتميّز بالهيمنة الذّكوريّة. وهو تحرّر يتّخذ أبعادا متعدّدة، تشمل الجسد والحركة والصّوت. إذ يظهر تحرّر الجسد من خلال تزيّي المرأة بأفضل لباسها وحليّها، واستعمال مختلف أصناف الزّينة والعطورات المتوفّرة ومشط الشّعر وإطلاقه إلى الخلف، تماما وكأنّهن قاصدات حفل زفاف، معتقدات أنّ هنّ يُحيين حفل "عرس الشّيخ". ويتجسّد تحرّر الحركة في "الشّطْحات" الصّوفيّة من جهة، وفي التّنقّل في محيط مقام الشّيخ قاطعات مع ضيق المكان المألوف والمحدّد من جهة أخرى. أمّا تحرّر الصّوت فيتجلّى في الزّعاريد والمدائح والأذكار والغناء الشّعبي، والحديث بصوت مرتفع يكشف تمرّدا - وإن كان لا واعيا- عن النّواميس والقوانين الاجتماعيّة التي تضع ضوابط آداب الحديث في سائر الأيّام.

ويُعدّ الأكل الجماعيّ وخاصّة الإفراط في الأكل المرتبط بـ"الزّردة" وبطقس الوعدة تحديدا، من المظاهر الأخرى التي تكشف دور "الزّردة" في التّنفيس عن الانفعالات المكبوتة، لأنّ الأكل بشراهة والأكل الكثير هو خروج عن آداب الطّعام التي يلتزم بها الجميع في الأيّام العاديّة. وهي ممارسات تتعارض مع الممارسات الاستهلاكيّة اليوميّة المتّبعة من قبل سكّان المنطقة والمتمثّلة في عدم تبذير الأطعمة، والرّغبة الملحّة في الحفاظ عليها، وهي ممارسات لها أسس ثقافيّة ودينيّة وطبيعيّة. فـ"الزّردة"، إذن، هي مناسبة للتّعويض عن حال الجوع والفقر التي يعيشها العديد من زوّار الزّاوية خاصّة في فترات الجدب والأزمات. فالعديد من الزّوار لا يأكلون اللّحم إلاّ في "الزّردة" وفي بعض المناسبات الأخرى مثل الأعراس أو عيد الأضحى. لذلك يكشف

الإفراط في الاستهلاك وعدم الالتزام بآداب الطّعام ثأر الفئات الفقيرة من حال الفقر والغبن والعُدم التي تعيشها. وتتشابه عادة الإفراط في الطّعام والإطعام كثيرا مع ممارسة البوتلاتش بين هنود أمريكا الشّماليّة [42].

1 - 4 - الوظيفة الاقتصاديّة:

يُعدّ حرم الزّوايا مكانا مميّزا لانعقاد الأسواق أيّام "الزّردة" لأنّها فضاءات حجّ يحرّم فيها القتال، ويقلّ فيها الغشّ خشية لعنة الوليّ. وتعرض في السوق الحيوانات والمواشي، وفوائض الإنتاج الفلاحي مثل الحبوب والسّمن والزيت والصّوف، والأدوات الفلاحيّة التّقليديّة، والأدوات المنزليّة التّقليديّة، والمنسوجات المختلفة مثل "البطّانيّة" و"الفرش" أو "الكليم" و"البرونس"، وبعض المنتجات الخزفيّة مثل " الغنّاي" والجِرار وغيرها. وأغلبها منتجات تحتاجها أغلب العائلات في إطار نمط العيش البدويّ الذي يغلب عليه الانتقال وعدم الاستقرار. ويمثّل السوق المنعقد حول الزّاوية جزءا من الظّاهرة الدينيّة المرتبطة بـ "الزّردة"، لأنّ البعد الاقتصاديّ هو أحد أبعاد الظّاهرة الدينيّة [43]. ويسعى العديد من الزّوّار إلى شراء المواشي ومختلف البضائع التي يحتاجونها من هذا السوق لأنّهم يشعرون بالأمان وانعدام الغشّ، ويعتقدون أنّها تنقل البركة إلى القطعان والبيوت [44]. وإلى جانب دوره الاقتصاديّ يضطلع سوق "الزّردة" بدور هام في تبادل الأخبار والمعلومات والمصالح [45]، أفضل من بقيّة الأسواق الأسبوعيّة بالجهة نظرا إلى كثرة روّاده.

2 - وظائف زواية سيدي علي بن عون أثناء المهرجان:

أدّت سياسة إحياء الدّين التي اتّبعتها الدّولة الوطنيّة بعد فشل سياسة التحديث التي انتهجتها منذ الاستقلال إلى انتعاش الدّين، ويتجلّى ذلك في ظهور الإسلام السّياسيّ والإسلام الأصوليّ، ما دفع الدولة خاصّة منذ بداية التسعينات إلى تشجيع الإسلام الشّعبيّ والزّوايا لمحاصرة الإسلام السّياسيّ والأصوليّ، لقدرة الزّوايا على تأطير النّاس حتى لا ينخرطوا في تيّارات الإسلام السّياسي والإسلام الأصوليّ. وحتّى تتمكّن من توظيف الزوايا والإسلام الشعبيّ ومراقبته قامت الدولة بتحويل العديد من "الزّرَدْ" (جمع "زردة") إلى مهرجانات ثقافيّة رسميّة [46]، منها مهرجان سيدي علي بن عون وكان ذلك في 1992، إذ أُقرّت فيه "الزّردة" مهرجانا وطنيّا [47]. ويختلف المهرجان عن "الزّردة" بطابعه الرّسميّ، فهو تظاهرة ثقافيّة رسميّة تشرف عليها لجنة تنظيم ومجموعة من الهياكل الرّسميّة والسّياسيّة، منها الولاية والمندوبيّة الجهويّة للثقافة، والمعتمديّة وبلديّة بن عون والمجلس القرويّ والجمعيّات الثقافيّة. ويستمدّ

المهرجان طابعه الرّسميّ من الفقرات التي يتضمّنها خاصّة الافتتاح والاختتام، الذي يشرف عليهما المسؤولون البارزون على غرار وزير الثقافة أو وزير السّياحة، وتوزيع الجوائز في إطار حفل رسميّ، وتدخّل السلطة لضمان أمن الأفراد، ولمراقبة الأنشطة التي يتكوّن منها المهرجان وتأطيرها. ومن المظاهر الأخرى التي تعكس الطّابع الرسميّ للمهرجان تلقّيه تمويلات ماليّة من العديد من هياكل الدّولة. ويكشف الحضور الرّسمي المكثّف في المهرجان كثافة الحضور السّياسيّ تنظيما وإشرافا، مقابل إقصاء يكاد يكون تامّا للأطراف المشرفة على الزّاوية. فالمهرجان إذن أصبح يهيمن على مختلف النشاطات التي كانت من مشمولات الزّاوية. ويُعدّ هذا التّحوّل شكلا من أشكال التوظيف السّياسيّ للمقدّس، وإخضاع "الزّردة" للتوجّهات الإيديولوجيّة للدّولة التي تسطرها في سياستها الثقافيّة [48]. وعليه يمثّل المهرجان وسيلة ضبط اجتماعيّ إذا أخذنا بعين الاعتبار الأعداد الهامّة من الزّوار الذين يجذبهم المهرجان. وأصبحت الزّاوية تؤدّي وظائف تنمويّة اقتصاديّة وثقافيّة. إي أنّ الوظائف التّقليديّة الدّينيّة والاجتماعيّة للزّاوية أثناء "الزّردة" قد همّشت وانحسرت ولكنّها لم تندثر كليّا لأنّ البعض من طقوس "الزّردة" تواصل مع المهرجان لكن بدرجات متفاوتة، وهو ما يكشف نوعا من التّعايش بين الدّيني الطّقوسيّ والدّنيويّ، ولكلّ منهما زوّاره وحرفاؤه.

2 - 1 - الوظيفة الاقتصاديّة:

يمثّل المهرجان مناسبة هامّة تساهم في خلق حركيّة اقتصاديّة ذات صلة بالتّجارة والسّياحة في الفضاء الذي ينظم فيه لمدّة ثلاثة أيّام.

وتُعدّ الوظيفة الاقتصاديّة التّجاريّة وظيفة أساسيّة للمهرجان، إذ أدّى تحوّل التّظاهرة من "الزّردة" إلى مهرجان إلى توسّع السّوق كميّا ونوعيّا. فأمّا التّوسّع الكمّي تمثّل في تزايد عدد الأماكن المعدّة لعرض البضائع (تسمّى نَصْبَة) التي تحيط بالزّاوية من مختلف الجهات. وأمّا التّوسّع النوعي فيشمل تنوّع البضائع والمنتجات، فالسوق اختلف عمّا كان عليه قبل تحوّل "الزّردة" إلى مهرجان، فأصبح يعرض مختلف البضائع والمنتجات ومختلف الحيوانات، والخضر والغلال والحلويّات على تنوّع أصنافها وأشكالها وأذواقها وألوانها، إضافة إلى تزايد عدد المقاهي والمطاعم المتنقّلة التي تستقبل الزّوّار موسميّا، ومحلاّت الجزارة المختصّة في ذبح الضّأن والإبل بعد تخلّي أغلب العائلات عن ذبح الوعدة في حرم الزّاوية [49]. وفي سوق المهرجان تباع كذلك المواد الممنوعة مثل المخدّرات وتحديدا القنّب الهندي "الزّطلة" والمشروبات الكحوليّة، وهو نشاط لا يسم مهرجان سيدي علي بن عون وإنّما مختلف المهرجانات الأخرى. ووفق تقديرات اللّجنة المنظّمة للمهرجان يبلغ عدد التّجّار في سوق

المهرجان ما يزيد عن خمس مائة تاجر. وإذا أخذنا بعين الاعتبار العربات المتنقّلة فيمكن أن يبلغ عددهم الألف [50]. ويحقّق هؤلاء التّجّار في سوق المهرجان أرباحا هامّة قد تتجاوز أضعاف أرباحهم الشّهريّة، إذا أخذنا بعين الاعتبار الارتفاع الكبير في أسعار أغلب المنتجات الاستهلاكيّة مقارنة بأسعارها في سائر الأيّام. وتكشف هذه التّجاوزات المتعدّدة عدم خضوع سوق المهرجان إلى الرّقابة الاقتصاديّة والصّحيّة والأمنيّة. وهو ما يذكّرنا بتقلّص الرّقابة الاجتماعيّة التي كانت تطغى على كلّ الطّقوس والممارسات المرتبطة بـ"الزّردة"، فتقلّص الرّقابة تواصل في المهرجان، واتّخذ أبعادا أخرى، فبعد أن كان الهدف منه التّنفيس والتّخفيف من ضغوطات اليوميّ، أصبح الهدف منه تجنّب حدوث الفوضى والاحتجاجات في تجمّع كبير للنّاس تصعب السيطرة الأمنيّة عليه.

كما أنّ إقبال الزوّار الذين ينتمي أغلبهم إلى الفئات ذات الدّخل المحدود على الاستهلاك المفرط أثناء المهرجان يذكّرنا بالممارسات المرتبطة بالوعدة والإفراط في استهلاك الطّعام أثناء "الزّردة". وكأنّه شكل من أشكال تواصل الممارسات التي لا يرغب زوّار الزّاوية في التّخلّي عنها، أي أنّ الممارسة نفسها تواصلت ولكن في سياق آخر يكشف طبيعة التّحوّلات التي عرفتها "الزردة" والتحوّلات التي عرفها المجتمع عامّة. وهي ممارسات تكشف أيضا عن ثأر الفئات ذات الدّخل المحدود من حال الفقر التي تعيشها، فحجم استهلاكها أثناء المهرجان وقيمته يتجاوز بكثير قدرتها على الإنفاق.

تحوّل المهرجان إلى مناسبة للسّياحة الشّعبيّة ترتادها العائلات الفقيرة، هدفها التّرفيه من خلال مواكبة العروض الثّقافيّة التي تمثّل فقرات المهرجان، الذي وظّف رمزيّة "الزّردة" أو "الأصل التّجاري" لـ"الزّردة" لجلب أكثر ما يمكن من زوّار. وهي سياحة تراثيّة ثقافيّة، تمكّن الزوّار وخاصّة منهم الفئات الشّابة من الاطّلاع على الخصوصيّات الثقافيّة والحضاريّة للجهة. ويستقطب المهرجان أعدادا هامّة من الزّوار خلال الأيّام الثلاثة التي ينتظم فيها، سواء أكانوا من المحلّين وخاصّة منهم من ولاية / محافظة سيدي بوزيد والولايات المجاورة مثل قفصة والقصرين، أم من الأجانب من ليبيا والجزائر تحديدا. ويؤكّد هذا المهرجان وكذلك مختلف المهرجانات الثقافيّة الأخرى العلاقة العضويّة بين السّياحة والتّراث [51]. إلاّ أنّ ما يلفت الانتباه الغياب شبه الكلّي لمختلف البنى التّحتيّة التي يتطلّبها النّشاط السّياحيّ من ذلك الطّرقات ومواقف السّيّارات والمدرّجات التي تيسّر الفرجة وخدمات النّقل والإيواء والإطعام رغم العدد الهام من الزّوار الذي يتراوح بين 400 ألف و 500 ألف زائر وفق تقديرات الهياكل المشرفة على المهرجان [52]. وهو بذلك يتفوّق على مختلف المهرجانات الثقافيّة الأخرى ليس فقط في البلاد التّونسيّة وإنّما في كامل بلاد المغرب.

2 - 2 - الوظيفة الثقافيّة:

ونظرا إلى ارتباط السّياحة بالثقافة ارتباطا عضويّا، فإنّ مهرجان سيدي علي بن عون مثالا مجسّدا لذلك، فهو معرض حيّ للعديد من عناصر التراث الشعبيّ غير المادّي. ويمثّل دعامة هامّة لقطاع السّياحة التّراثيّة والثقافيّة عامّة. ويولي عناية خاصّة بالجانب الترفيهيّ الثقافيّ الفرجويّ. إذ يتضمّن فقرات عديدة عمدتها العروض الفرجويّة التّراثيّة، منها ما كان مميّزا لـ "الزّردة" فأعيد إنتاجها وتواصلت بتواصل المهرجان، إلى جانب أنشطة أخرى مستحدثة استجابة إلى مقتضيات التّطوّر الاجتماعيّ والتّحوّلات الثقافيّة والسّياسيّة.

فما أعيد إنتاجه في برنامج المهرجان، جليّ في أنشطة مثل ألعاب الفروسيّة والشّعر الشّعبي. فألعاب الفروسيّة تواصلت فقرة قارة في برنامج المهرجان يوميّا صباحا مساء. لكنّها لم تحافظ على طابعها التّلقائي بل أدخلت عليها بعض التّغييرات تمثّلت في اضطلاع الأطراف المعنيّة بتنظيم المهرجان باستدعاء الفرسان من العديد من جهات البلاد، والتّكفّل بإقامتهم وتوفير منح لهم مقابل مشاركتهم، وإسناد جوائز، أحيانا، في صورة فوزهم في مسابقات الفروسيّة.

أمّا الشّعر الشّعبيّ فتواصل حضوره في المهرجان ومثّل فقرة أخرى قارة في مختلف دورات التّظاهرة. إلاّ أنّ الجديد أن الشعراء أصبحوا يُستدعون من قبل اللّجنة المنظّمة للمهرجان، التي تنظّم مباريات في القصيد والشّعر الشّعبيّ، بتنوّع أغراضه، وخاصّة في الشّعر الذّي يتغنّى بخصال الولي الرّمز وكراماته وبركاته.

أمّا الأنشطة المحدثة أو ما يمكن نعته بجديد المهرجان، فتتمثّل في عرض فنّي موسيقي، دأبت إدارة المهرجان في العشريّة الأخيرة على تنظيمه في كلّ دورة، ويحييه أحد الفنّانين المعروفين. ومن الفقرات المحدثة الأخرى التي تؤثّث البرنامج الثقافي للمهرجان الاستعراض الثقافيّ الفنّيّ والتراثيّ الذي يفتتح به المهرجان ويُختتم، مثل "الماجورات" و"السطمبالي" و"المرحول" والعرس التّقليديّ ("الجحفة"). لكن التّجديدات لم تكن بمنأى عن ممارسات جديدة تمثّلت في تقييد المشاركة في مختلف أنشطة المهرجان سواء أكانت الفروسيّة أم الشّعر الشّعبيّ أو الحفل الموسيقيّ أو مختلف الاستعراضات الأخرى بالاستدعاء الرّسمي وتوفير منح مقابل المشاركة وأحيانا جوائز للفائزين في مختلف المسابقات، وبهذه الطّريقة وضعت السّلطة حدّا للتلقائيّة التي كانت تتّسم بها مختلف الطّقوس والممارسات التي تكوّن "الزّردة"، ومكّنتها من التّدخّل والهيمنة عليها، فأصبحت تستدعي من تريد للمشاركة في مختلف فعاليّات المهرجان وتقصي من تريد خاصّة لأسباب سياسيّة وتشترط الولاء للحزب

الحاكم في الفترة النّوفمبريّة التي امتدّت من 1987 إلى 2011. وهو ما خلق نوعا من العلاقة الزّبونيّة بين السّلطة والمشاركين في مختلف الفعاليّات. وهي المظهر الرّئيس لسياسة المراقبة والاحتواء قصد تجفيف المنابع السّياسيّة لمحاصرة المعارضين للسّلطة.

ورغم تنوّع الفقرات التنشيطيّة للمهرجان تبقى ألعاب الفروسيّة التي تتفرّع إلى "المشاف" و"المداوري" و"الفانطازيا"، والشّعر الشّعبيّ من أهمّ الأنشطة استقطابا للجمهور، وهي الأنشطة الموروثة عن "الزّردة" التي تجد صدى في أنفس روّاد المهرجان لقربها من بيئتهم الثقافيّة والاجتماعيّة. أمّا البرامج الثقافيّة المحدثة التي يكرّسها المهرجان فلا تجد أيّ اهتمام من قبل العديد من الفئات الجنسيّة والعمريّة مثل الشيوخ والنّساء والأطفال لأنّها ترى أنّ هذه البرامج الثقافيّة للمهرجان ليست إلاّ إسقاطا سياسيّا هادفا إلى تمييع خصوصيّة الجهة وانخراطها في برنامج ثقافيّ شموليّ يسعى إلى بناء شخصيّة مواطن يسهل إحكام السّيطرة عليه، ولذلك فهي تشعر بنوع من الاغتراب يتجلّى في مفارقة يجد الفرد نفسه ممزّقا بين طرفيها موجود يرغب عنه، ومنشود يرغب فيه، ما جعل بعض الممارسات تتواصل خارج إطار البرنامج الرسميّ للمهرجان باحتشام مثل الزّيارة والحضرة، والوعدة، خاصّة من قبل أقرباء الوليّ من أولاد سيدي علي بن عون وأخوالهم من عرش الحرشان[53]، وبعض العائلات من العروش المجاورة التي مازالت تحافظ على ولائها للشّيخ سيرا على نهج أسلافهم ممّن عاصره أو عاصر أتباعه. وبعض الفئات الاجتماعيّة التي مازالت تعتقد في رمزيّة الوليّ وكراماته.

فرغم تراجع أهمّية الزّيارة فقد تواصلت بعض طقوسها كما كانت أثناء "الزّردة"، من ذلك الطّواف بالأضرحة، وقراءة الفاتحة، والدّعاء، والزّغاريد، وتقديم بعض الهدايا، والاختلاط بين الجنسين، ووضع البعض من المال في صندوق الزّيارة. أمّا طقس الحضرة فإنّ إلغاءه من البرنامج التّنشيطي للمهرجان، وخاصّة في العشريّة الأخيرة [54]، لم يمنع تواصله بصفة تلقائيّة خارج البرنامج التنشيطي للمهرجان من قبل بعض المجموعات التي تختار مكانا غالبا ما يكون بين الخيام المنتشرة في حرم الزّاوية. وتواصل هذا الطّقس بالكيفيّة التلقائيّة وغير المنظّمة يكشف تمسّك عدد كبير من زّوار المهرجان به، علما وأنّ هذا الطّقس لا يزال متواصلا بصفة أسبوعيّة دوريّة في اللّيلة الفاصلة بين الخميس والجمعة. في حين أنّ طقس الوعدة رغم خضوعه إلى النّظام البيتيّ [55]، فقد تواصلت ممارسته في حرم الزّاوية أثناء أيّام المهرجان، مع التّراجع الملحوظ في عدد المقبلين عليه.

ويكشف تواصل تأدية بعض طقوس "الزّردة" في أيّام المهرجان - ولو بصفة محتشمة - التّعايش بين الممارسات الروحيّة الدينيّة والممارسات الدنيويّة الفرجويّة، رغم غلبة طابع

المهرجان على طابع "الزّردة"، وهو ما يُعدّ نوعا من استمراريّة "الزّردة" في المهرجان، لأنّ ذلك لم يقض كليّا على طقوس "الزّردة" بل أفرغها من محتواها، وأفقدها جوهرها وطابعها الاحتفاليّ والجماعيّ [56].

- الخاتمة:

تتلخّص التحوّلات من "الزّردة" إلى المهرجان في دنيوة المقدّس، أي تقلّص الطّابع القدسي للعديد من الممارسات والطّقوس الدّينيّة وتحوّلها إلى أفعال وممارسات دنيويّة. فـ"الزّردة"، إذن، كانت تمثّل نظاما متكاملا من الطّقوس والممارسات بعضها دينيّ صرف مثل الزّيارة والحضرة والوعدة وبعضها الآخر دنيوي اجتماعي واحتفالي واقتصادي مثل الأكل الجماعي وألعاب الفروسيّة والسوق، لكن لا تستمدّ معناها إلاّ من سياقها الديني، لأنّها ممارسات جالبة لبركة الولي [57]. وتتأسّس "الزّردة" على مبدإ الفعل والمشاركة الجماعيّة في مختلف الطقوس، فالاحتفال، إذن، كان معيشا جماعيّا [58]. والمشاركة ملزمة على كلّ أفراد المجتمع المحلّي. بيد أنّ تحوّل "الزّردة" إلى مهرجان مسّ أغلب هذه الطّقوس التي تمثّل جانبا هاما من الثقافة التّقليديّة تحت شعار التّحديث، ومقاومة التّخلّف. وهي تحوّلات تشي بالنّظرة الدّونيّة إلى الطّقوس والعادات. ورغم هذه التّحوّلات الطّارئة والمسقطة فقد تواصلت ممارسة بعض طقوس "الزّردة" بصفة فرديّة تلقائيّة غير منظّمة، خارج الإطار الرّسمي للمهرجان، تجد دعما من بعض الفئات التي لا تزال تؤمن بكرامات الوليّ وبركاته، ما يكشف التّعايش بين طقوس "الزّردة" وأنشطة المهرجان، وهي علامة مائزة لزاوية سيدي علي بن عون عند مقارنتها بالعديد من الزّوايا الأخرى في البلاد التّونسيّة.

الهوامش:

[1] - أنظر، زهيّة جويرو، الإسلام الشّعبي، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت 2007.

[2] - لطيفة لحضر، الإسلام الطّرقي، دراسة في موقعه من المجتمع ومن القضيّة الوطنيّة. سراس للنّشر، تونس 1993، ص.5.

[3] - نفس المرجع، ص. 6.

[4] - ديل أيكلمان، الإسلام في المغرب، ترجمة محمّد عفيف، دار توبقال للنّشر، المغرب، الطّبعة الأولى 1991، ص. 41.

[5] - مقابلة مع مفتاح ونّاسي، رئيس جمعيّة مهرجان سيدي علي بن عون منذ 2014، وأمين مالها منذ 2005، بئر الحفي في 10- 02- 2018.

[6] - أنظر، التليلي العجيلي، الطّرق الصّوفيّة والاستعمار الفرنسي بالبلاد التّونسيّة 1881- 1939، نشر كليّة الآداب بمنّوبة 1992، لطيفة لحضر، الإسلام الطّرقي...، مرجع مذكور.

[7] - لئن تعرّضت بعض الزّوايا في البلاد التونسيّة إلى الحصار والتّضييق عليها واحتوائها منذ الفترة الاستعماريّة، وخاصّة في فترة الدّولة الوطنيّة التي سعت إلى اجتثاث الدّين الشّعبي والقضاء على الزّوايا، وهو ما أدّى إلى انحسار وظائف بعض الزّوايا وإغلاق العديد منها، إلاّ أنّه تفضل الإشارة في هذا السّياق إلى أنّ تدخّل السّلطات الاستعماريّة قد اختلف حجمه وشكله من زاوية إلى أخرى ومن جهة إلى أخرى. كما أنّ الدّولة الوطنيّة قد استهدفت بسياستها الثقافيّة الجديدة خاصّة الزّوايا التي توجد في المناطق الحضريّة والزّوايا الأكثر استقطابا للزوّار.

[8] - يبدو أنّ تدخّل السلطات الاستعماريّة الفرنسيّة في زاوية سيدي علي بن عون كان محدودا إن لم يكن منعدما، كما أنّها لم تلق مقاومة من قبل الحركة الوطنيّة أثناء الفترة الاستعماريّة، ولا من قبل الدولة الوطنيّة، نظرا إلى طابعها الرّيفي، ووجودها في المناطق الدّاخليّة المهمّشة.

[9] - نور الدين طوالبي، الدين والطّقوس والتّغيرات. منشورات عويدات، بيروت، باريس 1988، ص. 133.

[10] - نور الدين طوالبي، الدين والطّقوس ...، مرجع مذكور، ص. 122.

[11] - Isambert (F. A.), Le sens du sacré : Fête et religion populaire. Paris minuit 1982.p. 127.

[12] - مريم خير الدّين الغابري، الاحتفال الدّينيّ الشّعبيّ: التّواصل والتّحوّل زردة سيدي بن عون نموذجا، رسالة دكتوراه، كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس1999- 2000، ص. 65.

[13] - Eliade (Mircea), Le sacré et le profane, NRF, Gallimard. 1965. p.60.

[14] - عبد الوهّاب الشّارني، ظاهرة الزّاوية والمعتقدات الشّعبيّة في المجتمع التّونسي اليوم، الأسس الاجتماعيّة والتّحوّلات، رسالة دكتوراه، كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس1995، ص. 500.

[15] - ترتبط بركة الولي بالصّلاح والنّسب الشريف، فسيدي على بن عون يرجع نسبه وفق ما تحتفظ به الذّاكرة الشّعبيّة للجماعة المحليّة إلى آل البيت وتحديدا إلى ابنة الرسول صلّى الله عليه وسلم فاطمة الزّهراء، ويمثّل النّسب الشّريف الأساس الذي تنبني عليه المنظومة الرّمزيّة للمقدّس (رحمة بورقيبة، الدّولة والسّلطة والمجتمع: دراسة في الثّابت والمتحوّل في علاقة الدّولة بالقبائل في المغرب. بيروت دار الطّليعة، 1991، 46، مريم خير الدّين الغابري، الاحتفال الدّينيّ الشّعبيّ...، مرجع مذكور، ص. 48). أمّا الكرامات فتكشف عن القدرات الخارقة للأولياء التي تُضاهي معجزات الرّسل في الدّيانات السّماويّة، وتمكّنهم من اتّخاذ العديد من الصفات الإلهيّة على غرار الإرادة الحرة والقدرة المطلقة (عماد صولة، وظائف الزّاوية في المجتمع التّونسي: سيدي البشير نموذجا. رسالة دكتوراه، كليّة العلوم الإنسانية والاجتماعيّة بتونس، 1992- 1993، ص.244). ومن كرامات الشيخ سيدي علي بن عون تحدّيه النّار، وجلب الخصب والنّماء ودرء المرض والضّرر (مريم خير الدّين الغابري، الاحتفال الدّيني الشّعبي...، مرجع مذكور، ص. 152، فريد الصّغيري، "المأثورات القوليّة للشّيخ علي بن عون" الثقافة الشّعبيّة، عدد 19، خريف 2012). وتمثّل الكرامات دليلا على ثبوت الولاية وصدقها، وتمكّن الولي من تقمّص دور الوسيط بين أتباعه والإله. وتنتقل بركة الولي للزّوّار عن طريق الحلول في حرم الزّاوية ولمس الأشياء المقدّسة والتمسّح بها واستهلاك طعام "الزّردة" وشرب الماء مريم خير الدّين الغابري، الاحتفال الدّيني الشّعبي...، مرجع مذكور، ص. 152. ويمكن أن تنتقل لدى بعض الأولياء الآخرين عن طريق اللّعاب والدّم وحتّى عن طريق الممارسة الجنسية (ديل أيكلمان، الإسلام في المغرب...، مرجع مذكور).

[16] - عبد الوهّاب الشّارني، ظاهرة الزّاوية والمعتقدات الشّعبيّة...، مرجع مذكور، ص.274.

[17] - عماد صولة، وظائف الزّاوية في المجتمع التّونسي: سيدي البشير نموذجا. رسالة دكتوراه، كليّة العلوم الإنسانية والاجتماعيّة بتونس، 1992- 1993، ص. 157.

[18] - مقابلة مع لخضر عواينيّة، من أبناء سيدي علي بن عون، ومهتمّ بتراث الزّاويا، سيدي بوزيد، في 08- 02- 2018.

[19] - Dermenghem (Emile), Le culte des saints dans l'islam maghrébin, Edition Gallimard, 1954.

[20] - مريم خير الدّين الغابري، الاحتفال الدّينيّ الشّعبيّ...، مرجع مذكور، ص. 75.

[21] - عماد صولة، وظائف الزّاوية في المجتمع التّونسي...، مرجع مذكور، ص. 158.

[22] - Dermenghem (Emile), Le culte des saints... op. cit. p.124.

[23] - عبد الوهّاب الشّارني، ظاهرة الزّاوية والمعتقدات الشّعبيّة...، مرجع مذكور، ص.290- 291.

[24] - Dermenghem (Emile), Le culte des saints... op. cit. p.123.

[25] - لطيفة لحضر، الإسلام الطّرقي...، مرجع مذكور، ص. 21- 23.

[26] - عبد الوهّاب الشّارني، ظاهرة الزّاوية والمعتقدات الشّعبيّة...، مرجع مذكور، ص.289.

[27] - Hubert (H.) et Marcel (M.), « Essai sur la nature et la fonction du sacrifice » L'année Sociologique, 2éme année 1897- 1898.(II), p.133.

[28] - آلة إيقاعيّة تشبه الدّف لكنّ قطرها أكبر.

[29] - حركات راقصة مدارها النّصف الأعلى من الجسد، بتحريك الرّأس يمينا وشمالا وليّ الأذرع إلى الوراء.

[30] - عبد الوهّاب الشّارني، ظاهرة الزّاوية والمعتقدات الشّعبيّة...، مرجع مذكور، ص.324.

[31] - عافي منذر، الزّوايا والأسواق الريفيّة فضاءات للاتّصال والتّبادل، سيدي بوزيد نموذجا، شهادة الكفاءة في البحث، كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس، 1993، 46- 49، مريم خير الدّين الغابري، الاحتفال الدّينيّ الشّعبيّ...، مرجع مذكور، ص. 82.

[32] - لئن كانت الوعدة ممارسة إراديّة رغبة في تحقّق طلب بوساطة الشّيخ، فإنّ "الخطيّة" شبيهة بالوعدة لكنّها تختلف عنها في كونها إلزام يفرضه القائمون على الحضرة لمساهمتهم في شفاء المريض.

[33] - عبد الوهّاب الشّارني، ظاهرة الزّاوية والمعتقدات الشّعبيّة...، مرجع مذكور، ص.327.

[34] - نفس المرجع ، ص.284.

[35] - مريم خير الدّين الغابري، الاحتفال الدّيني الشّعبي...، مرجع مذكور، ص. 66.

[36] - Bourdieu (P.), « Esquisse d'une théorie de la pratique », Genève, librairie Dorz, 1er édition 1972, p. 39.

[37] - عبد الكريم براهمي، " الثّابت والمتحوّل في طقوس الغذاء أثناء الضّيافة في المجتمع التونسي: مقاربة أنتروبولوجيّة"، مجلّة الثّقافة الشّعبيّة عدد 36، شتاء 2017، ص. 71.

[38] - Aubaile-Sallenave (F.), « Le sel d'alliance », in Journ. d'Agric. Trad. et de Bota. Appl. vol. XXXV, 1988. p. 320.

[39] - Isambert (F. A.), Le sens du sacré..., op. cit. p. 157.

[40] - عبد الكريم براهمي، الإبل والمجال في البلاد التّونسيّة: مقاربة تاريخيّة وأنتروبولوجيّة. رسالة دكتوراه، كليّة العلوم الإنسانية والاجتماعيّة بتونس، 2015، ص. 413.

[41] - Isambert (F. A.), Le sens du sacré..., op. cit. p. 157.

[42] - Mauss (M.), Sociologie et anthropologie, PUF, 4éme édition, 1968. p. 152.

[43] - عبد الوهّاب الشّارني، ظاهرة الزّاوية والمعتقدات الشّعبيّة...، مرجع مذكور، ص.346.

[44] - مريم خير الدّين الغابري، الاحتفال الدّينيّ الشّعبيّ...، مرجع مذكور، ص. 102.

[45] - Douillé (E.), Marrakech, Paris. 1905. p. 144.

[46] - يتنزّل إحياء الزّوايا والدّين الشعبي في سياق سياسة ثقافيّة تثمّن الثقافة الشعبيّة بصفة عامّة، من تجلّياتها إنتاج العديد من العروض الفنيّة الفرجويّة الضّخمة على غرار عرض النّوبة والحضرة، وعروض أخرى اتخذت تسميّات متعدّدة منها الفزعة و"اللّمّة" والزّيارة، وذلك شكل من أشكال توظيف التراث الثقافيّ الشعبيّ واستلهامه في إنتاج عروض فرجويّة ومسرحيّة ضخمة. أنظر، عماد صولة، وظائف الزّاوية في المجتمع التّونسيّ...، مرجع مذكور، ص. 226، مريم خير الدّين الغابري، الاحتفال الدّينيّ الشّعبيّ...، مرجع مذكور، ص. 243.

[47] - مريم خير الدّين الغابري، الاحتفال الدّينيّ الشّعبيّ...، مرجع مذكور، ص. 68.

[48] - عماد صولة، وظائف الزّاوية في المجتمع التّونسيّ...، مرجع مذكور، ص. 331.

[49] - تخلّى أغلب الزّوار عن ذبح الوعدة في حرم الزّاوية أثناء "الزّردة"، وعن الأكل الجماعي، وأخضعوا هذا الطّقس إلى النّظام البيتي.

[50] - مقابلة مع مفتاح ونّاسي، رئيس جمعيّة مهرجان سيدي علي بن عون منذ 2014، وأمين مالها منذ 2005، بئر الحفي في 10- 02- 2018.

[51] - Voir, Boyer M., Histoire générale du tourisme du XVIe au XXIe siècle. Paris, L'Harmattan, 2005 ; Morisset, Lucie K., Des régimes d'authenticité : essai sur la mémoire patrimoniale, Québec, Presses de l'Université du Québec, Rennes, Presses de l'Université de Rennes, Réseau des universités Ouest-Atlantique, 2009.

[52] - مقابلة مع مفتاح ونّاسي، رئيس جمعيّة مهرجان سيدي علي بن عون منذ 2014، وأمين مالها منذ 2005، بئر الحفي في 10- 02- 2018.

[53] - ينتمي عرش الحرشان إلى أولاد رضوان من قبيلة الهمامة.

[54] - مقابلة مع مفتاح ونّاسي، رئيس جمعيّة مهرجان سيدي علي بن عون منذ 2014، وأمين مالها منذ 2005، بئر الحفي في 10- 02- 2018.

[55] - تخلّت أغلب العائلات عن ذبح الوعدة في حرم الزّاوية وأقبلت على ذبحها في البيت سواء في أيّام المهرجان، أو في سائر الأيّام. وأصبح بإمكان العائلة أن تستهلكها لوحدها أو تُعدّ الكسكسي باللّحم وتستدعي البعض من الأقارب والجيران. أو توزّع جزءا من اللّحم الطّازج عليهم، وهي تحوّلات باتت منتشرة في بلدان المغرب عامّة (مقابلة مع محمّد بن علي براهمي، من عرش الحرشان، الهيشريّة في 15- 01- 2018).

[56] - عبد الوهّاب الشّارني، ظاهرة الزّاوية والمعتقدات الشّعبيّة...، مرجع مذكور، ص.313- 314.

[57] - نفس المرجع، ص. 500.

[58] - مريم خير الدّين الغابري، الاحتفال الدّينيّ الشّعبيّ...، مرجع مذكور، ص. 281.